مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 132 - 145

رت م د: 2353 - 0367

رت م د إ: 2602-5507

مساهمة الأندلسيين الموريسكيين في الجهاد البحري المغاربي خلال القرنين 16و17م (الجزائر والمغرب الأقصى أنموذجا)

The Moresks Andalusians' contributions to the Maghreb maritime jihad during the 16th and the17th centuries (Algeria and Morocco as an example)

طا. د. دفي فؤاد

جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، مخبر المخطوطات، douffifouad@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022-04-20 **تاريخ القبول:** 2023-02-20 **تاريخ النشر:** 2023-05-05

ملخص:

يهدف هذا المقال لإبراز اسهامات الأندلسيين والموريسكيين في الجهاد البحري بالبحرية الجزائرية والمغربية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي، والبحث في نشاطهم البحري على السواحل المغاربية هذا النشاط الذي لفت أنظار الدول الأوربية بسبب تلك العمليات العسكرية البحرية التي خلقت المتاعب للقوى الأوربية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، وقد استخدمنا المنهج التاريخي التحليلي لتتبع نشاط ودور الأندلسيين في الأسطول البحري الجزائري والمغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي، وبدراسة وتحليل المصادر والمراجع التي تناولت الموضوع نجد اختلافا بين المؤرخين في التدليل على تلك الأنشطة العسكرية البحرية حسب تأثير الانتماء، غير أن الدور الموريسكي في الجهاد المغاربي ظل قليل الاهتمام في الدراسات التاريخية، حيث توصلت هذه الدراسة في نتائجها إلى أن الأندلسيين قد تبوؤوا مناصب قيادية مهمة في البحرية الجزائرية والمغربية بفضل معرفتهم بعلوم البحر وقراءة الخرائط وادارة المعارك، وكان لهم دورا بارزا في النشاط البحري والجهاد المغاربي ضد القوى الأوربية المسيحية.

كلمات مفتاحية: الجهاد البحري، الموريسكيون، الإيالات المغاربية، الجزائر، المغرب الأقصى.

Abstract:

This article aims to highlight the contributions of the Andalusians and Moriscos to the maritime jihad in the Algerian and Moroccan navies during the sixteenth and seventeenth centuries AD, and to discuss their maritime activity on the Maghreb coasts. The Mediterranean, and we have used the analytical historical method to track the activity and role of the Andalusians in the Algerian and Moroccan naval fleet during the sixteenth and seventeenth centuries AD, and by studying and analyzing the sources and references that dealt with the subject, we find a difference between historians in the evidence for these naval military activities according to the influence of affiliation, but the role The Moriscos in the Maghreb jihad remained of little interest in historical studies, as this study concluded in its results that the Andalusians had assumed important leadership positions in the Algerian and Moroccan navy thanks to their knowledge of marine sciences, reading maps and managing battles, and they had a prominent role in the maritime activity and the Maghreb jihad against the European powers Christianity

Keywords: maritime Jihad, Moresks, Maghreb Eyalets, Algeria, Morocco.

مقدمة:

إنّ تصورات وجهة نظر المؤرخين حول موضوع الحروب البحرية المغاربية خلال الفترة الحديثة أو ما يطلق على تسمياته في أدبيات الكتابات الغربية " القرصنة البحرية المغاربية " في غرب البحر المتوسط إنما هو في حقيقة الأمر مرتبط ارتباطا وثيقا بعمليات "الجهاد البحري" التي كانت تخوضها البحرية المغربية والجزائرية انطلاقا من واجب ديني مقدس، وذلك بهدف نجدة مسلمي الأندلس من محاكم التفتيش من جهة، وكردة فعل معاكسة لما يقوم به الاسبان في حق المسلمين من تقتيل وتهجير ومصادرة للممتلكات من جهة ثانية .وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ بلدان المغرب قد شهدت هجرة أندلسية واسعة النطاق طبعت العالم المتوسطي خلال الفترة الأخيرة من العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، ففي المرحلة الثانية من الهجرة الأندلسية التي تبدأ من سقوط غرناطة سنة 1492م قصد المهاجرون الأندلسيون مختلف المناطق الساحلية للمغرب العربي واتخذوا منها ملجأ وموطنا لهم .

وبالمقابل كان الجهاد البحري في السواحل المغاربية قد لفت أنظار الدول الأوروبية لاسيما مهاجري الجزائر وتونس الذين وجهوا نشاطهم الجهادي ضد السفن الأوروبية وسببوا الكثير من المتاعب للدول الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط من خلال أسرهم للكثير من الأسرى الأوروبيين والأعلاج، وكذا العديد من الغنائم وتكفّلوا بعمليات انقاذ مسلمي الأندلس. ويقصد بالجهاد البحري بمفهومه الشرعي تلك العمليات العسكرية البحرية التي خاضتها البحرية المغربية والجزائرية ضد المصالح الإسبانية والمسيحية ذات الخلفية الدينية المسيحية والمصلحة الاقتصادية البراغماتية والتي اختلف المؤرخون في التدليل عليها حسب درجة توجهات وانتماءات كل منهم، مستعملين بذلك عدة مصطلحات ومفاهيم متفاوتة من حيث المفهوم، فمنهم من يدرجها في عداد العمل القرصاني (Course)، كحرب مشروعة وذات صبغة قانونية في ذلك العصر، بينما يعتبروها آخرون مرادف للصوصية البحرية (Piratrie) والخروج عن القانون السائد آنذاك، وصيد المغانم (Flbustrie)، والاحتيال والمخادعة (Ecumeur).

وهناك فريق ثالث تتداخل المصطلحات لديه، فلا يميّز بين القرصنة واللصوصية عند الحديث عن الجهاد البحري، فيتم التشويه على وضعيته كقرصان شبيه بالمتطوع العسكري، وكمحارب قانوني يتوفر على ترخيص من قبل إحدى القوات المتحاربة لمهاجمة إحدى السفن

التجارية ،محاولين إلى حد كبير نزع هذه الصفة عن البحارة المسلمين، في الوقت الذي يجعلونها وساما دالا على الشهامة والبطولة عندما يتعلق الأمر بقراصنة العالم المسيحي بعد استقرار الأندلسيين المورسكيين في الأقطار المغاربية حاملين راية الجهاد ضد القوى الأوروبية التي كانت تشن الحملات العسكرية من حين لأخر على السواحل المغربية من أجل سحق تلك الأقلية المورسكية، غير أنّ هذه الأقلية استطاعت الوقوف والتصدي في وجه القوى المسيحية بشكل عام واسبانيا بشكل خاص، وأعلنت الجهاد البحري بدافع ديني، خاصة وأنّ الاسبان قاموا بمحاكم التفتيش وتهجيرهم وطردهم من الأندلس.

فإلى أي مدى ساهم الأندلسيون المورسكيون في الجهاد البحري في كل من الجزائر والمغرب الأقصى خلال القرنين 16 و17 م ؟.

1. مساهمة الأندلسيين المورسكيين في الجهاد بالبحرية الجزائرية:

تعود أصول الجهاد البحري في الجزائر إلى منتصف القرن الرابع عشر ميلادي، بسبب الأزمة السياسية والاقتصادية التي عصفت بالمغرب الأوسط، والتي كانت من أهم عواملها هجرة مسلمي الأندلس إلى السواحل المغاربية والجزائرية ، واستقرارهم في المراكز الساحلية إلى جانب مساهمتهم في تموين سفن المجاهدين وتشجيعها، والتصدي للتحرشات والاعتداءات الإسبانية (فارس، 1969، ص.16).

وقد عمدت اسبانيا من خلال تحرشاتها على السواحل المغاربية والجزائرية بهدف السيطرة على هذه السواحل ثم التوغل إلى الداخل والسيطرة عليه، ولتحقيق هذا الغرض شرعت في تشييد شيدت سلسلة من القلاع على طول السواحل المغاربية، واستولت على بعض المراكز الساحلية الجزائرية مثل المرسى الكبير (1505م)، وهران (1509م)، ومستغانم (1511م)، وتلمسان (1512م) وتنس (1509م)، وبجاية (1510م)، والجزائر (1511م)، وعنابة (1512م)، (فكاير، ص.56)، وكان الجهاد البحري في السواحل المغاربية قد أثار قلق الدول المسيحية، ولاسيما الجهاد البحري الذي خاضته البحرية الجزائرية وتصديها لعمليات القرصنة التي باشرتها الدول الأوروبية في عرض البحر الأبيض المتوسط، وتكفلت بعمليات إنقاذ مسلمي الأندلس من محنتهم (Belhamissi, 1996, p.16)

وبعد تثبيت الحكم العثماني بالجزائر (1519م)، شكلت الجزائر قاعدة ارتكاز عثمانية في

الصراع الإسباني-العثماني بمنطقة الحوض الغربي للمتوسط، وشكل النشاط البحري الذي خاضه الإخوة " بربروس" وخلفاؤهم أمثال صالح رايس وايدين رايس ودرغوت، ومراد رايس، وحسن فيزنيانو، وعلج علي باشا، مخاوف لدى الدول الأوروبية، وبذلك اعتبرت السواحل الجزائرية، في نظر الموريسكيين "أرض الميعاد" (التميمي1975،ص.ص.100-107) وبمقدورها وإمكانها تقديم ما يحتاجونه من دعم ومساندة، لاسيما فيما يتعلق بالسلاح للدفاع عن أنفسهم. وفي هذه الفترة الزمنية بالذات سجل تزايد اللاجئين الموريسكيين نحو السواحل الجزائرية ارتفاعا كبيرا وملحوظا بداية من سنة 1570م، واستطاع الموريسكيون توطين وتثبيت وجودهم في الجزائر بشكل كبير، خاصة عندما تقوّى النظام العثماني الحاكم بها في فترة البايلربايات (جوليان، 1982، ص.ص.321-350)، وتمكّن بذلك خير الدين من جعل إيالة الجزائر قوة بحرية في المنطقة المتوسطية هزت إسبانيا وأرعبت أوروبا، واستحقت بأن يطلق عليها "دار الجهاد" وعلى مؤسساتها العسكرية البحرية "أكبر مدارس الإسلام البحرية" (آجقو، 1994، ص. ص.134-154).

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الشأن أنّ معرفة خير الدين بالملف الموريسكي كانت جيدة فحاول الاستعانة بهم والتفكير في إنشاء دولة قوية وموحدة، وانطلاقا منها يكون باستطاعته استرجاع الأندلس مرة أخرى، والعمل على إنقاذ الموريسكيين من سياسة الاحتواء الثقافي والديني الذي مارسته محاكم دواوين التفتيش في حقهم (وولف، 1986، ص.39)، وبذلك حاول الاستثمار فيهم فكانت مساهمتهم في الجهاد ضد الاحتلال الاسباني فعالة، وكانت لهم مواقف بطولية من أجل رفع راية التوحيد، والانتقام لحملة التنصير القيصري التي لحقت بهم ومورست في حقهم اسبانيا (أندروهين، 1986، ص.107).

لقد كانت هجرة الأندلسيين إلى السواحل الجزائرية سببا في مطاردة الاسبان لهم والقيام بالتحرشات ولذلك ظهر هناك تحالف قوي جمع الأندلسيين مع الجزائريين كان هدفه المشترك هو القضاء على الإسبان، إذ ساهم الأندلسيون مساهمة فعالة و كبيرة في البحرية الجزائرية وكان لهم دور محوري من خلال الهجوم و المباغتة على السواحل الشرقية لإسبانيا (هلايلي، ص.52).

كما كان أيضا للجالية الأندلسية دور فعّال في الدفاع والجهاد البحري ، فقد أدى الموريسكيون دورا كبيرا في التصدي للحملات الأوروبية، وخاصة الإسبانية منها التي كانت تسعى

إلى تتبع الأندلسيين الفارين للسواحل المغاربية ومارست في حقهم قبل ذلك ما يعرف تاريخيا " محاكم التفتيش " من أجل سحق تلك الأقلية الموريسكية (سعيدوني، 2003، ص.54). وقد تمكّن الأندلسيون من جعل الموانئ الجزائرية كقواعد بحرية خاصة بهم لممارسة الجهاد البحري (الزبيري، 1982، ص.11) ضد المسيحيين في البحر الأبيض المتوسط، ويصف هذا "مارمول"، حيث يقول» لقد كان الموريسكيون يغيرون من حين إلى أخر على السواحل الإسبانية ليلا مثل موريسكي شرشال الذين كانوا يقومون بهجومات خاطفة على السواحل الإسبانية من أجل إنقاذ المسلمين وأسر المسيحيين» (أملي، 1997، ص.18).

كما أثنى عليهم "جون وولف" الذي اعتبرهم العمود الفقري للجهاد البحري في النصف الأول من القرن 16م (وولف، ص.107)،وعليه فقد باشر الموريسكيون الأندلسيون عمليات الجهاد البحري انطلاقا من السواحل الجزائرية بعد استقرارهم بها (كربخال، 1984، ص.76).

كما ساهم الأندلسيون في تقوية الجيش العثماني في الإيالة الجزائرية بفضل خبرتهم وتجربتهم العسكرية كمقاتلين محترفين (أمين، 2001، ص.23)، حيث تعتبرهم بعض الدراسات التاريخية المؤسسين الحقيقيين للإيالة وكان لهم نشاط بحري واسع في مدينة الجزائر (قنان، 1990، ص.271)، يضاف إلى هذا أنهم برعوا في تجارة الأسرى والغنائم، واشتهر منهم بحارة ورياس كثيرون أمثال : الرايس " بلانكو " والرايس " أحمد أبوعلي " من أشونية و" مراد الكبير وجواد يانو" من نيودال، وكانوا يعملون في الجهاد البحري ضد الإسبان (عنان، 1977، ص.388)، ومما يدل على أهمية النشاط الأندلسي في الأعمال البحرية أن المعاهدة الفرنسية الجزائرية لعام 1640م، خصت السفن الأندلسية بالذكر عندما حددت في البند العاشر مسؤولية ما يلحق بالمراكب الفرنسية من خسائر جراء التعرض لها من طرف السفن الجزائرية (الجيلالي، 1955، ص.303).

وعندما شن القائد الإسباني "أندريا دوريا" حملة عسكرية على مدينة شرشال سنة 1531م أنزل هذا الأخير حوالي ألف وخمسمائة رجل قاموا بتحرير الأسرى المسيحيين، ثم قاموا بنهب المنازل (بحيري، 2012، ص.198)، فواجه سكان مدينة شرشال المكونين من الجالية الأندلسية والمحليين هذه الحملة بكل بسالة وقوة، فقد تركوا في صفوف هذه الحملة الكثير من القتلى والجرحى وحرق معظم السفن وأسروا العديد منهم فكانت وصمة عار على سابقاتها من الحملات

الإسبانية التي مني بها جيش أندريا دوريا (بوعزيز، 2009، ص.39)، وفي هذا الشأن يذكر المؤرخ الأمريكي جون وولف :«... لقد كان مشروعا سيئا حقا، ذلك أن شرشال كانت تسكنها فئة من السكان أغلبهم من المهاجرين الموريسكيين الذين امتازوا بخبرات عسكرية وكانوا يعرفون كيف يحاربون، وكانوا سعداء بمقاتلة الإسبان أو الطليان » (وولف، ص.41).

لقد كان لفشل حملة أندري دوريا على مدينة شرشال تداعيات ونتائج مهمة (المدني، 2007، ص.220)، حيث أصبح خير الدين ورفقائه سادة البحر المتوسط الغربي وفرضوا سيطرتهم على منافذ مهمة منه، وقام خير الدين بسبع رحلات إلى شواطئ الأندلس وأنقذ خلالها حوالي سبعين ألف لاجئ مسلم استقروا في مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية وحملوا معهم خبراتهم العسكرية والتقنية، وأبدوا استعداداتهم التامة للمشاركة في محاربة القراصنة الإسبان والأوروبيين معا (عباد، 2012، ص.53).

وفي ظل خدمة الموريسكيين الأندلسيين في البحرية الجزائرية تمكن البحارة الجزائريون في الفترة الممتدة من 1528-1584م من شن ثلاث وثلاثين غارة بحرية على السواحل الإسبانية وأنقذوا خلالها كثيرا من الأندلسيين المضطهدين والمهددين بالتنصير أو الموت، ومن أشهر هذه الغارات نذكر: غارة صالح رايس سنة 1529م، ويشير "مارمول" إلى نقطة مهمة تميز بها الأندلسيون إضافة إلى كونهم بحارة متميزين، وهي قضية براعتهم في مجال التنسيق والاستخبارات في البحرية الجزائرية (الميلق، 2018، ص.19).

ومهما يكن فإن دور الأندلسيين ومساندتهم في الجهاد البحري طوال القرن العاشر هجري والسادس عشر ميلادي، كان ذو أهمية بالغة ودور طلائعي سواء إقليميا أو دوليا، فقد أشارت تقارير ووثائق غير عسكرية تبين لنا مدى أهمية هذه الفئة في الجهاد البحري، ونقصد هنا رجال الدين والعلماء الذين كانت لهم الخبرة والمعرفة والدراية بهؤلاء الموريسكيين، فعلى سبيل المثال قصيدة محمد التواتي، لهي خير دليل على دعوة هؤلاء الأندلسيين إلى الجهاد ضد الإسبان، وذلك لاعتبارهم ذو خبرة وتجربة بالحروب البحرية، وقوة تعرف خبايا الإسبانيين (الراشدي، 1973، ص.16).

وبالمقابل شكل الأندلسيون المتواجدون بحصون الجزائر خطرا كبيرا على عدم استقرار

الشواطئ الإسبانية، وخاصة الحوض الغربي للبحر المتوسط، إذ كانت هجوماتهم مع الأسطول الجزائري تزرع الرعب في قلوب سكان السواحل الإسبانية، وفي هذا الصدد يعبّر أحد الكتاب الغربيين عن ذلك بقوله: "إن الميزة المشتركة لدى الموريسكيين هي أنهم يكرهون المسيحيين، وعندما تسمح لهم الفرصة وتتوفر الإمكانيات، يجهزون سفننا، ويلقون القبض على من في السفن الإسبانية، ويتخذونهم أسرى، رغبة في الانتقام." (شوفالييه، ص.14)، وبذلك ساعد الأندلسيون البحرية الجزائرية في الهجوم ببراعة على السواحل الشرقية الإسبانية، وكانوا يفضّلون الهجوم والنزول ليلا إلى السواحل الإسبانية، وهذه إحدى الحيل التي استعملها الأندلسيون في حركتهم الجهادية (هلايلي، 2010، ص.54).

كما نجد بعض النماذج من العائلات الموريسكية التي امتازت في مجال الجهاد البحري ، ومن أبرز هذه العائلات التي عمرت مدة طويلة في الجهاد "أسرة النفيس"، التي كانت تقوم بعمليات هجومية على سواحل البرتغاليين والإسبان، وقد ساعدهم في الجهاد البحري إخوانهم عن طريق الجوسسة وإعطائهم معلومات استخباراتية يستندون عليها، وذلك من خلال معرفة أماكن استقرار السفن المسيحية وتمركزها وعددها وكمية الأسلحة المتوفرة لديها وتعداد جنودها لتسهيل السيطرة عليها، وكذلك تزويدهم بالمؤونة وتعيين أماكن الرسو والإقلاع (سعد الله فوزي، 2016، ص.104).

ويمكن لنا أن نذكر من بين الأسماء اللامعة من هؤلاء المقاتلين والقادة العسكريين الأندلسيين الذين اشتغلوا بأسطول البحر الأبيض المتوسط طيلة عقود منطلقين من مدينة الجزائر "المحروسة"، والذين كانوا يتقنون استخدام السيف والمدفع مثلما كانوا بارعين في توظيف البوصلة والخرائط في مقصورة السفن والبوارج، ونذكر منهم الرايس بلانكو، الرايس أحمد بوعلي الأشبوني، الرايس مراد الكبير غواديانو، الرايس سعيد الشويهد (عنان، 1977، ص.288).

2. مساهمة الأندلسيين المورسكيين في الجهاد بالبحرية المغربية :

حافظت الدول المغاربية في آخر العصر الوسيط و بداية العصر الحديث على أسطول كبير لقيادة العمليات العسكرية في الأندلس (المنوني، 2000، ص.ص.107-213)، لكن تدمير الأسطول المريني خلال حكم السلطان أبي الحسن في القرن 14م، وتراجع المسلمين في الأندلس ومراكز التقاليد البحرية في القرن 14 أعلن نهاية هذا التنظيم، فقد عمّت الفوضى والاضطرابات في

المغرب الذي فقد هيبته الدولية في البحر الأبيض المتوسط، وقد أدى هذا إلى فقدان العديد من الموانئ إثر احتلالها من طرف القوات الأيبيرية في القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر في نمو النشاط البحري، وبما أن اسبانيا والبرتغال كانتا تدركان أنّ نمو الأسطول المغربي يشكل خطرا على حركتها الاستعمارية ومصالحها في المستعمرات (مليل، ص.314).

ولمجابهة طموحات المغاربة في حماية السواحل المغربية، اتخذت ورشات الرباط وباديس وتطوان تقريبا أربعين قاربا وسفينة، ويعود التحسن النسبي للصناعة البحرية بشكل رئيسي إلى الوجود الأندلسي في السواحل المغربية (مليل، ص.315)، حيث هدف المورسكيون من وراء اختيارهم الإقامة بالرباط تكوين قوة مضادة لحماية السواحل المغربية، وذلك من أجل الانتقام والعودة إلى الديار الأندلسية وهذا ما نجده عند السلطان المنصور الذهبي، إذ واعدهم سرا بالعودة إلى مواطنهم الأصلية، وأمام هذا شارك جزء من المورسكيين في جيش المنصور بغزو جنوب السودان سعيا وراء اكتساب أموال تساعدهم على تقوية شؤونهم المادية وتقوية مراكزهم العسكرية (القشتالي، ص.146). كما انضم المورسكيون إلى القوات البحرية من أجل الجهاد ومهاجمة السواحل الإسبانية وإنقاذ ما تبقى من الأندلسيين، فبنو في الرباط دار لصناعة السفن، وأنشئوا مدرسة ملاحية للدراسة البحرية وصناعة السفن وإصلاحها ومعرفة طرق البحر ليلا بواسطة حركة النجوم، وبهذا سيطروا على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ونسّقوا عملهم مع مراكز بحرية في الجزائر ومناطق أخرى من السواحل المغاربية (السلاوي،1997،ص.ص.57-59).

ورغم أنّ مدينة الرباط حدث فيها نوع من الفوضى والصراعات الداخلية، إلا أنّ هذا لم يمنع السلطان من الاحتفاظ بالأندلسيين، لأنه لن يجد من يقوم محلهم بشؤون البحر ولا سيما أنّه كانت الدولة المغربية تعتمد عليهم بشكل كبير في الأسطول الحربي البحري، وتقنيات المدفعية البحرية، وكذلك معرفتهم باللغات الأجنبية كالإنجليزية والإيطالية والإسبانية، وذلك لكونهم يوجد منهم أمراء البحر كالعبودي وبربيس، والمستيري، والعربي، وغيرهم، وكان للأندلسيين سفن بحرية حربية كبيرة كسفينة الكوار وسفينة المشاري (القادري،1986،ص.ص.641-42).

وفي عهد السلطان عبد الرحمن عمل هذا الأخير على إحياء الجهاد البحري، وأمر بالخروج

من السواحل من أجل غنم بعض سفن النابريال لعدم إدلائهم برخصة لعبور البحر، فهاجمهم أهل العرائش، وشجع الجهاد في البحر لتأديب الممالك الأوروبية وكبح تحرشاتها ضد الأندلسيين والأفارقة والعرب والمسلمين بصفة عامة، ولم تكن لدى مورسكي وادي "أبي رقراق" في بداية الأمر سوى أربع بواخر في بداية سنة 1600م، ليرتفع العدد إلى حوالي ستين باخرة مع بداية القرن السابع عشر ميلادي، وقد عمدت السلطات الفرنسية من أجل إغراق باخرة فرنسية في ميناء أبي رقراق، من أجل وقف الجهاد المورسكي من طرف السلطان المغربي، ووقف القرصنة وتحرير الأسرى الفرنسيين (الإفراني، 1997، ص.177).

ومما يستدعي التنويه أنّه مع بداية القرن السابع عشر تراجع عدد البواخر الأندلسية لقلة المعدات والمواد الأولية لصناعتها، لكنّ هذا لم يمنعهم من جلب بواخرهم في الغالب من أوروبا، وكذلك صناعة عدد منها بمساعدة الهولنديين في الرباط، إذ كانوا يصلون بهذه السفن في مغامراتهم البحرية إلى شواطئ الإنجليز ومهاجمة سفنهم، وكان المورسكيون على علاقة دبلوماسية مع كل من هولندا وفرنسا، واليهود الذين لعبوا دورا بارزا في السمسرة التجارية بين المورسكيين وهولندا وكان هؤلاء يضايقون أشد مضايقة كل السفن التي تخرج في عرض المحيط الأطلسي (الحساني، 1989، ص.28).

ومنذ سنة 1626م، لم يسمع باستقرار قنصل فرنسي بالرباط، ولا ببيع الأسرى الفرنسيين بمدينة سلا المغربية، وذلك لما لقيته فرنسا من مضايقات من السفن الأندلسية في السواحل (مزين، 1986، ص.275)، وهذا ما شجع مبعوث البلاط الانجليزي "يوجون هاريس" على اتصاله بالمجاهدين الأندلسيين والقيام بهجوم مشترك ضد اسبانيا، ومن شروط الاتفاقية بينهما تحرير أسرى الانجليز وتسليم أربعة عشر مدفعا من الذخيرة للمجاهدين الأندلسيين، لكنّ قضية التحالف ضد الحكومة الإسبانية لم تتقبلها الحكومة البريطانية، رغم مقاطعة المجاهدين الأندلسيين مع السلطان المغربي زيدان، وواصلت إمارة "أبي رقراق" الاتفاق فيما يتعلق بشأن المعاهدة، لكنه لم يمض على هذه المعاهدة سنوات حتى استولت السفن الانجليزية على ذخيرة المجاهدين ورد المورسكيون بالمثل واستولوا على عدد من البواخر الانجليزية (بوشارب، 1985، ص.24).

وقد ساهمت هجرة الجالية الأندلسية بتشييد حضارة ساهمت في القوة الخارجية للمغرب

وأكسبتها ود واحترام الدول الأخرى (التمكروتي، 2007، ص.27)، فقد ساهموا في بناء وإعادة مدينة سلا التي عانت من الخراب والدمار الذي ألحقتها بها الحروب والصراعات الداخلية، وعادت من جديد إلى الحياة بفعل العمل الجهادي الذي مارسه سكانها، ويعود الفضل في هذا التحول إلى المورسكيين الذين هجّروا من إسبانيا واستقروا بها، فاستثمروا أموالهم في اقتناء السفن وتجهيزها للجهاد البحري (ارينال، 2006، ص.163)، بينما انصرف بعضهم الآخر إلى امتهان العمل الحربي في البحر باعتباره من الأعمال المشهورة بالنسبة إليهم والدفاع عن الأندلس، والقيام بتحصين قلعة سلا المغربية (ارينال، 2006،ص.152).

كما اشتهرت شخصية أندلسية ذاع صيتها بأعمال الجهاد البحري، وهي "السعيد بن فرج الدوغالي" حوالي سنة 1563م تقريبا، إذ كلفه السلطان بتشكيل قوة مدفعية في الجيش من المورسكيين وانخراطها في نشاط الجهاد البحري سنة 1571م، وكان له في مدينة سلا سبع سفن بحرية جهادية مجهزة على أهبة الاستعداد لشن هجومات على جزر الكناري (الأرقش وآخرون، 2003، ص.377)، وقد كان لسكان مدينة سلا دور كبير في عملية الجهاد البحري في عهد السعديين، وساعدهم في ذلك استقرار الأندلسيين بها في بداية القرن السابع عشر، واكتسب الجهاد البحري صبغة خاصة آنذاك، إذ أصبح أهم مظهر للوجود الأندلسي بالمغرب، مما أكسب المغرب بنية اقتصادية قوية من طرف الجهاد البحري الأندلسي (رزوق، 1997، ص.210).

ونستطيع أن نلحظ حركية الجهاد البحري في مدينة سلا ابتداء من 18 أفريل 1610م حيث كتب في هذا الصدد "فوكلا" إلى "هنري الرابع" رسالة عن عمليات الجهاد البحري التي كان يقوم بها الموريسكيون وإن كانت هذه العمليات غير منظمة وعبارة عن أحدا نشاطات متفرقة وغير منظمة، وأنّ عمليات الجهاد البحري الفعلية والمنظمة ابتدأت سنة 1617م، وبالحديث عن هذه العمليات كتب القبطان الهولندي "أبي ولمس" إلى "روتردام" رسالة يقول له فيها ما يلي: «منذ سنة لم يكن الموريسكيين يملكون سفنا والآن أصبح عددها أربعة، وسيصبحون أقوياء إذ لم تتخذ الإجراءات الضرورية ضدهم، وهم لا يخضعون لسلطة ملك المغرب ويستحوذون على كل ما يغنمونه» (رزوق،1997، ص.216).

أما بالحديث عن شكل وأحجام السفن المستعملة آنذاك ،فقد استخدم المجاهدون

السلاويون سفنا مستديرة وخفيفة تتلاءم مع حجم موانئهم ، كما استخدموا أنواعا أخرى من السفن نذكر من بينها: ترتان Tartane، والشراعية Brigantin، وشبيك Chébec، وبينك Pinque، وبولاكر Polacres، وكرافيلا Cravelle، والخفاف Pinasses، وسنيو Senau، وفركاطة Frégate (بن عبدالله، 1979، ص.68)، وجدير بالذكر أنّ هذه السفن التي كان يمتلكها الموريسكيون كانت تشترك في خاصيتين أساسيتين وهما: السرعة، والقدرة على الهجوم، فالسرعة ضرورية للمجاهد سواء للوصول إلى الهدف أو الهروب من المتابعات الخطيرة من طرف العدو (ارينال،ص.153).

كما شهدت مدينة تيطوان مركزا للجهاد البحري في السواحل المغربية وكان الأندلسيون يتعرضون باستمرار لعمليات القرصنة من جانب السفن الأوروبية، حيث ورد في رسالة "جون" الإنجليزي إلى "والتراسطون" والمؤرخة في 07 يناير 1622م، اشارته إلى وصول عدد من الأندلسيين المأسورين، وفي هذه الكارثة التي حلت بالأندلسيين المذكورين فإنّ القائد عرض مقايضة وتسليم هؤلاء الأندلسيين والمسافرين مقابل الانجليز الذين تعرضوا للأسر بتيطوان، غير أنّ الأندلسيين وبقية المسلمين الذين بحوزة الانجليز لم يقبلوا العرض دون رجوع الأمتعة التي ابتزت منهم (رزوق، ص.256).

وبالمقابل أقام الموريسكيون اعتبارا من النصف الثاني من القرن الخامس عشر بصفة أساسية في المدن الساحلية المغربية بشكل دائم، الرباط، سلا، تيطوان ... الخ، وهناك امتهنوا الجهاد البحري في البحر الأبيض المتوسط، وكذا في المحيط الأطلسي، حيث كانوا يعترضون للسفن المارة إلى العالم الجديد بصورة مستمرة وكانت ترفع رايات على السفن من أجل عدم الاعتراض لها (رزوق، ص217)، كما بلغ عدد القوات البحرية الشريفية ألفي رجل موزعين أساسا على موانئ الرباط و"العرائش" و"تيطوان" و"أسفي" و"أكادير" ويمثل الأندلسيون العمود الفقري لهذه القوات التي كانت تحت إمرة الرايس " إبراهيم الشط" ثم الرايس "شعبان" ثم الرايس "القلفاط الأندلسي" (ملين، ص.316).

خاتمة:

مما سبق ذكره وختاما يمكن القول أنّه تمخض عن الوجود الأندلسي والهجرات الموريسكية الى السواحل المغاربية ولاسيما المغربية والجزائرية منها دور طلائعي وبارز في تكوين البحرية المغربية والجزائرية، اذ استطاعوا بفضل تجربتهم العسكرية وخبرتهم الميدانية ومعرفتهم بعلوم البحر والإلمام بعلم الخرائط والطرق البحرية واستعمال البوصلة من إعطاء دافعية كبرى في تشكيل البناء القيادي والعسكرية لنواة البحرية والتصدي للتحرشات والاعتداءات البرتغالية والإسبانية على السواحل المغربية والجزائرية.

يضاف إلى كل هذا براعتهم الميدانية في صنع السفن الحربية وإجادتهم لاستعمال مختلف الأسلحة الحربية، فقد تميزوا بقدرتهم الفائقة على قيادة الجنود وطرق وأساليب إدارة المعارك الحربية البحرية، وظهر منهم قادة ورياس بحر أكفاء امتلكوا حسن قيادة السفن والجنود ومن أمثال هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر "والرايس" أحمد أبوعلي" من أشونية و"مراد الكبير وجواد يانو" من نيودال الرايس بلانكو، الرايس أحمد بوعلي الأشبوني، الرايس مراد الكبير غواديانو، الرايس سعيد الشويهد ونماذج عدّة من هؤلاء البحارة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. آجقو، علي، (1994)، الدولة الجزائرية الأولى (1514-1830) دراسة مؤسساتية، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 2 ، جامعة باتنة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، ص.ص.137.156
2. الأرقش، دلندة وآخرون، (2003)، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي، تونس.
3. الإفراني، محمد الصغير، (1998)، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، (ط1)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب .
4. أمين، محمد، (2001)، القرصنة وشروط افتداء الأسرى الاسبانيين بالجزائر القرن 18م، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس.
5. أندروهين، (1986)، افتراق الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس العالم، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، (ط1)، منشورات ذات السلاسل، الكويت .
6. بوشارب، أحمد، (1985)، محضر محاكمة بحار برتغالي كان يتاجر بأسفي، مجلة كلية الأدب والعلوم الانسانية، عدد خاص، فاس، المملكة المغربية.
7. التمكروتي، علي بن محمد، (2007)، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم محمد الصالحي، (ط1)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.
8. التميمي، عبد الجليل، (1975)، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541، المجلة التاريخية المغربية، العدد 3 ، تونس.
9. جون ب، وولف، (1986)، الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
10. الجيلالي، عبدالرحمان بن محمد، (1955)، تاريخ الجزائر العام، ج2، المطبعة العربية، الجزائر.

11. الحساني، إبراهيم بن علي، (1989)، ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، تحقيق: عمر آفا، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، الرباط، المملكة المغربية.
12. حسن، أملي، (1997)، الجهاد البحري بمصب أبي الرقراق رد فعل أندلسي ,مجلة كلية الأدب والعلوم الإنسانية ,العدد64، الرباط، المملكة المغربية.
13. حمدان، بن عثمان خوجة، (1982)، المرآة، تحقيق : محمد العربي الزبيري، (ط2)، الشركة الوطنية للطبع والتوزيع، الجزائر.
14. خير، فارس محمد، (1969)، تاريخ الجزائر الحديث، من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، (ط1)، مكتبة دار الشرق، بيروت، لبنان.
15. الراشدي، أحمد بن سحنون، (1973)، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق: المهدي البوعبدلي، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
16. رزوق، محمد، (1997)، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر، (ط3)، دار إفريقيا للشرق، الدار البيضاء، المملكة المغربية.
17. سعد الله، فوزي، (2016)، الشتات الأندلسي في الجزائر والعالم، ج2 ، (ط1)، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر.
18. السلاوي، أحمد بن خالد الناصري، (1997)، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج7، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب .
19. شارل، أندري جوليان، (1982)، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، ج2، (ط2)، الدار التونسية للنشر، تونس .
20. عباد، صالح ، (2012)، الجزائر خلال الحكم التركي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
21. عبدالعزيز، بن عبدالله، (1979)، معجم السفانة والسفن ، مكتب التنسيق والتعريب في العالم العربي ، الرباط، المملكة المغربية.
22. عنان، محمد عبد الله، (1977)، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، (ط3)، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر.
23. فكاير، عبد القادر، (د..ت.)، الغزو الاسباني على السواحل الجزائرية وأثاره 910هـ- 1206هـ/ 1502- 1798، دار هومة للنشر والتوزيع، (د.ط)، الجزائر.
24. القادري، محمد بن الطيب، (1986)، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي واحمد التوفيق,ج1، (ط1)، مكتبة الطالب، الرباط، الملكة المغربية.
25. القشتالي، عبد العزيز، (د.ت)، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق: عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية.
26. قنان، جمال، (1990)، معاهدة الجزائر مع فرنسا 1619-1830، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
27. كربخال، مارمول، (1984)، إفريقيا، ترجمة :محمد حجي وآخرون, مكتبة المعارف، الرباط، المملكة المغربية.
28. كورين، شوفالييه، (2007)، الثلاثون سنة لقيام دولة مدينة الجزائر، ترجمة: جمال حمدانة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
29. عنان، محمد عبدالله ، (1977)، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، (ط3)، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر.
30. المدني، أحمد توفيق ، (2007)، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792،(ط1)، دار البصائر، الجزائر.
31. مرثيديس، غارثيا آرينال، (2006)، شتات أهل الأندلس، ترجمة: محمد فكرى عبد السميع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر.
32. مزين، محمد، (1986)، فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549ـ 1637م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية.
33. مليل، محمد نبيل، (د.ت.)، السلطان الشريف الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، ترجمة: عبد الحق الزموري، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي ، جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية.

34. المنوني، محمد، (2000)، ورقات عن حضارة المرنيين، (ط 3)، منشورات كلية العلوم الإنسانية، الرباط، المملكة المغربية.
35. الميلق، عبد القادر،(2018)، الأندلسيون والموراكة وحضورهم في الصناعة البحرية في الجزائر في العهد العثماني، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، الجزائر، المركز الجامعي آفلو، المجلد9 ، العدد1.
36. سعيدوني، ناصر الدين، (2003)، دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الايبري والوجود الأندلسي بالجزائر، (ط1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
37. هلايلي، حنيفي، (2010)، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى، (د.ط)، الجزائر.
38. بحيري، يامنة، (2012)، الموروث الحضاري الأندلسي بشرشال، مجلة الدراسات التاريخية، الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، العدد14، الجزائر، ص.ص 48 . 60.
39. بوعزيز، يحي ، (2009)، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830، دار البصائر، الجزائر .
40. Moulay Belhamissi, (1996), Marine Et Marins D'Alger 1518, Bibliothèque Nationale, Algérie.